قِصَّةُ حَيَاةِ عُمَر

علي الطنطاوي

دار المنارة
للنشر والتوزيع
جدة - السعودية

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

دار المنارة
للنشر والتوزيع
جدة - السعودية
هاتف : ٦٦٠٣٢٣٨ - ٦٦٠٣٦٥٢ - تلكس : ٦٠٣٠٦٧
ص . ب : ٢١٤٣١/١٢٥٠

قصة حياة عمر رضي الله عنه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١

. . . في يومٍ وَهِج من أيام الصيف، قد خَدِر واشتد حرّه، في الهاجرة الملتهبة، كان يسير على رمضاء مكّة ــ وقد تسعّرت وتوقّدت، واستحالت جمرة مشتعلة ــ رجلٌ ضخم الجثّة، مفرط الطول، شديد الأَسْر، قد توشّح سيفه، وأَقبل مسرعاً، يطأ الأرض وطأً عنيفاً، فتحسّ كأنْ قد تقلقلت تحت أقدامه، ويرمي كل شيء حوله بنظرات، ينبعث منها الغضب، ويتطاير الشرَّر، لا يبالي الشمسَ المتَّقدة، ولا الحصى المتسعِّرة، ولا يَحْفل السَّمومَ الذي هبَّ سخناً يَلْفَحُ الوجوه، كأنه فَيح جهنم. . . لأَن له غايةً فهو يسعى إِليها: إِنه يريد أن يقتل «سيد العالم»!

ذاك هو (عمر) الجاهلية. . . رجل يعيش في الظلام، وراء سوُر التاريخ، لم يدنُ منه، ولم يَلِجْ حماه، ولم يُلْقَ عليه نوره، رجلٌ يمشي في هذه القافلة الجاهلية، التي تبدأ من وسط الرمال، في قلب الصحراء، ثم تسير على الرمال، رمال الصحراء، ثم تفنى وسط الرمال، في الصحراء. . . تبدأ من العدم، وتنتهي إِلى العدم، قبل أن تبلغ أرض المدنيّة، أو تصلَ إِلى حدود العمران، أو تدنوَ من مهاد العلم والحضارة والحياة.

رجل يعيش بغير اسم، ويموت بلا ذكر!

٢

قف أيها الرجل، تودَّع من جاهليتك، إن عرشك في التاريخ قد أُعدّ لك لتستوي عليه، إن محمداً صلى اللّه عليه سيضع في يدك المفتاح الذي يفتح لك أبواب (التاريخ) الذي جهلك وأنكرك ولم يَدْرِ بك... لتدخل حرمه، ثم تعلوَ في مراقيه، ثم تُوغلَ في ساحاته وأَبْهائه، حتى تصل إلى السُّدّة العليا، فتجلس عليها دون الأنبياء، وفوق العظماء[1].

قف أيها الرجل، أَلْقِ عنك هذا السلاح الذي جئت تحارب به دين اللّه: إن دين اللّه لا يحارَب.

ارم هذا السيف الذي توشحته لتقتل محمداً ولتقضيَ على بدعته الجديدة، وتُبيدَ أصحابه التسعة والثلاثين، إن محمداً رسولَ اللّه، وسيّدَ كل من قال أنا إنسان، لن يقتل.

إن هذه البدعة التي كتب لها أن تغلب على العالم، وتبقى ما بقي الزمان ظافرةً منصورةً لن يُقضى عليها. إن هؤلاء التسعة والثلاثين رجلاً سيملكون الدنيا، سيصيرون أربعين ألفاً، أربعين أَلف ألف، أَربعمائة أَلف ألف، سيصيرون هم سكانَ هذه الكرة... إنهم لن يُبيدَهم سيفك يا عمر!

بل سيعزهم اللّه بك، وليستجيب فيك دعاء نبيه ومصطفاه، صلى اللّه عليه وسلم... فتعال، أغمد هذا السيف، اقبض هذه اليد التي

---

(١) حاشا أبا بكر أعظم العظماء، بعد الأنبياء.

رفعتها لتضرب بها امرأة. تعالَ اغتسل من شركك وجهالتك وجفائك وقسوتك. إنك ستمشي إلى مشرق النور، إلى دار الأرقم في أصل الصفًا، فتشهد فيها أَن لا إله إلا اللَّه، وأَن محمداً رسول اللَّه!

* * *

يا لسِرّ الكلمة السماويّة: لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه! لقد نقلت عمر من ظلمة الجاهلية إلى نور الإسلام، ومن حضيض الخمول إلى قُنّة المجد، ومن مَهَامِه النسيانِ إلى صدر التاريخ.. لقد ذهب عمر الفظّ القاسي الذي كان مطية لقريش في ظلمها وشركها وجبروتها الزائف، ينصر الباطل على الحق، والشرك على التوحيد، وجاء الفاروق العادل الرؤوف الرحيم، البطل الخالد العظيم، العبقريّ الذي أدار أربع ممالك، لقد جاء أمير المؤمنين، سيف الإسلام وعز الدين! يا للعجب العُجاب! إن الرجل الذي خرج في الهاجرة المحرقة، في هذا اليوم العصيب، منتضياً سيفه، لا يلوي على شيء حتى يقتل محمداً، قد رجع وهو يحب محمداً أكثر من أمه وأبيه والناس أجمعين، صلى اللَّه على محمد.

إنها قد تعرض للمرء لحظاتٌ تبدّل مسار حياته، ولكنا لا نعرف ــ ولا نكاد يعرف أحد ــ مثلَ هذه اللحظة المباركة، التي قلبت هذا الرجل قلباً، فارتقى مرةً واحدة من بدوي منكر لا يعرفه إلا قومه، إلى عبقري سيعرفه التاريخ بأنه قاهر كسرى وقيَصر، وباني الكوفة والبصرة، وأنه أشد وأَرق وأعقل وأعدل ملوك الزمان ــ هذه اللحظة التي أثَّرت في حياة العالم، فأزاحت دُوَلاً، وأقامت دولاً، وثلّت عروشاً، وبنت حضارات.

* * *

أسلم الفاروق، فليَفْرُق بين الحق والباطل، ولينتقل الإسلام من دينٍ مستترٍ يفرُّ من قريش العاتية الظالمة المستكبرة، مختبـيءٍ في حاشية من حواشي مكة التي يصول في بطاحها الشرك ويجول، وتقوم حول كعبتها الأصنام، إلى دين ظـاهر مجـاهد، يُجـابِهُ الخصـوم ويصمد للأعداء، لقد كان الإسلام ساكناً تحت الصفا يعمل بهدوء، ويتكامل في الخفاء، كما تتكامل البذرة في باطن الأرض، فليخرج الغصن ولَيَنْمُ في الهواء، وليسْمُ إلى العَلاء، ليكون منه بعد ثلاثين سنة الدوحةُ التي تمتد فروعها من صحراء إفريقية إلى سهول خُراسان، ومن جبال الأناضول إلى ساحل عُمان.

ليُعْلَن الإسلام (بمظاهرة) تسير في شوارع مكة على رأسها «حمزة» أسد اللّٰه و«عمر» الفاروق، حتى تنتهي إلى المسجد الحرام، فيصلي المسلمون عند الكعبة أول صلاة بجماعة، وإمامهم إمام الأنبياء وسيد المرسلين صلى اللّٰه عليه وسلم، ولتتقطع أفئدة قريش من حنقهم، وليمـوتوا بغيـظهم، إنهم لا يستطيعـون أن يصنعوا شيئـاً. لقد أسلم الفاروق، وفرق اللّٰه به بين الحق والباطل، إنها (مظاهرة) صغيرة، لم يسر فيها إلا أربعون رجلاً، ولكن هؤلاء الأربعين هم الذين صنعوا الأربعمائة مليـون مسلمي اليوم[1]، ولا يعلم إلا اللّٰه مـاذا يصنعون غداً... ولكن فيهم «حمزة»، فيهم «عمر»، فيهم خلاصة الإنسانية، وأفضل الإنس والجن والملائكة «محمد رسول اللّٰه» صلى اللّٰه عليه وسلم.

---

(١) أي يوم كتابة هذا الفصل سنة ١٣٥٢هـ وألف مليون يوم طبع هذه الرسالة سنة ١٤٠٨.

إن هذه (المظاهرة) التي سار فيها أربعون شخصاً مائتي خطوة، من الصفا إلى الكعبة، لهي أعظم (مظاهرة) عرفها التاريخ، لأعظم مبدإٍ قام لتقرير التوحيد، وتأييد الحق ونصرة الفضيلة، وتحقيق المُثُل العليا في الحق والخير والجمال.

إنها تسير أبداً، تسير في الأدمغة والقلوب، ما بقيت أدمغةٌ وقلوب، يحفّ بها الإجلال والإكبار.

٣

ولكن ماذا كان عمر لولا الإسلام؟ هل كانت هذه العبقرية النادرة، وهذه النفس العجيبة بالتي تظهر لو لم يلمسها محمد صلى اللّه عليه بيده الكريمة ويهزّها ويُفِضْ عليها من نوره؟

هل كان لعمر هذه المكانة في التاريخ، وهذه المنزلة في النفوس؟ هل كان يعيش إلى هذا العصر ويؤلف فيه عشرون كتاباً، ويبقى إلى العصر الآتي ويؤلف فيه أَلف كتاب؟

إن من يدقق في سيرة عمر، ويقابل بين عمر الجاهلية ـ على قلة ما لدنيا من أَخباره ـ وعمر الإسلام، ويرى كيف استحال عمر من شخص إلى شخص، وتبدلت طبائعه وأفكاره في اللحظة التي وقف فيها أَمام النبي صلى اللّه عليه وسلم ونطق بكلمة الشهادة، وكيف ولد في تلك اللحظة ولادةً جديدة، وبدأَ يصعد في مدارج العلاء... إلى ذروة المجد... إلى الجنة، علم أن عمر مَدِين إلى الإسلام بكل شيء.

نعم، قد تظهر هذه العبقرية ولو لم يتداركها الإسلام، وتبدو آثارها، ويصبح عمر زعيماً من زعماء مكة، يبرز ويعظم أَثره في قريش، ثم لا يتجاوز اسمه هذا الوادي الذي يمتد من جَرْوَل إلى

الحجُون، أما أن يتخطى أثره الأخشبين إلى البادية، ويقطعَ البادية إلى الشام والعراق، وينفذَ إلى الأجيال الآتية فشيء لم يكن ليناله عمر لولا الإسلام.

وماذا كانت تصنع هذه العبقرية وهي محصورة في هذا الأفق الضيق؟ وماذا كان يصنع عمر وهو يعيش في بلدة منقطعة عن العالم، تائهةٍ في لُجٍّ من الرمال ماله آخر، لا صلة لها بالبلدان العامرة إلا صلة التجارة الضعيفة، ولا تأتيها أخبار العالم إلا رثّةً بالية، ولا نبأ عندها من فلسفة يونان، أوحكمة الهند، أوأَخبار السياسة الدولية بين فارس والروم؟ هل ينير مصباحٌ محبوس في صندوق مغلق؟ أم يشتعل وحده لايدري به أحد، ثم يفنى زيته فينطفىء وحده لا يعلم به إنسان؟

أما كانت تمضي عبقرية عمر كما مضت ألوف من العبقريات دفنت حيّة في بقعة معتزلة من بقاع الأْرض، في قوم متأخرين، ولم تتصل بسمع التاريخ؟

أما إن عمر شعاعة من نور الإسلام، ومعجزة من معجزات رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم.

٤

لما استفاق بنو قريش من الغشية التي أَصابتهم عندما أَسلم عمر عادوا يكيدون للدين، ويؤذون النبي صلى اللَّه عليه وسلم والمسلمين، والنبي ماضٍ في دعوتهم، صابرٌ على أذاهم، ينذرهم بطش اللَّه، ويَعِدُهم إذا هم أسلموا ملكَ فارس والروم، ويعدهم جنةً عرضها السموات والأَرض، وهم ماضون في إعراضهم، لا يتدبّرون القرآن،

ولا تخشع له قلوبهم التي هي أشدُّ قسوةً من الحجارة ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، يا لهذه القلوب التي هي أغلظ من الجبال ﴿ ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِعاً مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ وهذه القلوب التي أنزل عليها القرآن لا تخشع ولا تلين!

طلعت الشمس على وادي مكة أَربعة آلاف وأربعمئة وأربعاً وعشرين مرة[1] والمشهد واحدٌ لم يتغير:

نبـي اللَّه يدعو الناس إلى اللَّه سرّاً وعلناً، فُرادى وجمعاً، ليلاً ونهاراً، وبنو قريش يناوئونه ويحاربونه ويؤذونه، يُلقون الشوك في طريقه وهو ماش، ويرمون سَلىٰ الجَزور على رأسه وهو ساجد، ويُغرون به سفهاءهم وأَحداثهم، ويفتنّون في تعذيب المسلمين، وتخرق لهم أدمغتهم الشيطانية طرقاً في التعذيب تقشعر لهولها الأبدان[1]، ويقاطعون المسلمين لا يكلمونهم ولا يبايعونهم ولا يزوجونهم، ويحصرونهم في الشِّعب سنتين، ثم يعِدّون عدَد الجريمة الكبرى، يأتمرون بالنبـي صلى اللَّه عليه وسلم ليقتلوه، ويُضيعوا دمه في القبائل فلا يقدر عليه بنو عبدمناف، فحتّامَ الصبر على هذا؟ أيقف هؤلاء المشركون الجاهلون من رؤوس قريش وزعماء مكة في وجه الإسلام الذي ما جاء لقريش ولا للعرب، ولا للقرن السابع الميلادي، ولكن جاء رحمة للعالمين،

---

(١) من يوم الاثنين ٦ اغسطس (آب) ٦١٠ إلى يوم الاثنين ٢٠ سبتمبر (ايلول) ٦٢٢ أي من البعثة إلى الهجرة.

(١) لكنها لم تكن تعد شيئاً فيما ابتكر ديوان التفتيش في اسبانيا لتعذيب المسلمين من طرق لم تخطر على بال إبليس نفسه وما ابتكر جند إبليس بعد ديوان التفتيش.

وهدىً للناس أَجمعين، في كل عصر وكل بادية ومصر؟ أَهؤلاء يمحون الإسلام من الأرض محواً؟ يا للسخفاء المغرورين! ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّه بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَىٰ اللَّه إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ وينصر نبيّه، ويظهر دينه (على الدّين كلّه). لم يعد في قوس الصبر مَنْزَع، فليسر الإسلام في طريقه، نحـو (أرض الشام)، أرض الـظلال والأعناب، فليستقر في الطريق، (في المدينة) حيناً، ثم ليخرج من يثرب ليعم العالمين. أَيها المسلمون... هاجروا إلى المدينة.

* * *

أَذن النبـي صلى اللَّه عليه وسلم للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، فخرجوا أَرسالاً مستخفين مستترين، ينسلون من مكة انسلالاً، فلا تدري بهم قريش إلا وهم في المدينة على رأس الجيش الذي يسحق رؤوس الكفر في (بدر) ثم يمضي إلى (فتح مكة).

لكن عمر، عمر القوي الذي ما لان للمشركين، عمر الذي أعلن إسلامه وذهب يضرب المشركين ويضربونه، ويجد في ذلك لذةً وراحةً، عمر الذي حماه خاله أبو جهل، وأجاره من أذى قريش، فضرب وجهه بجواره وأباه، وعاد إلى قريش يضرب ويُضرَب، ثم لا يكون إلا غالباً، يدفع عن نفسه وعن المستضعفين من المسلمين.

عمر يذهب من مكة مستخفياً؟ معاذ اللَّه يا عمر!

تهيأ عمر للهجرة، فتقلد سيفه، وتنكّب قوسه، وانتضى بيده أسهماً واختصر عَنَزَته[1] وذهب إلى المسجد فاستقبل قريشاً بالسلاح الكامل،

---

(١) عصا في رأسها زُجّ، كالرمح الصغير.

فطاف بالبيت سبعاً، ثم أتى المقام فصلى، ثم وقف على الملإ من قريش، فأعلن وحده الحرب عليهم جميعاً. . . . فقال:

«شاهت الوجوه! لا يرغم اللَّه إلا هذه المعاطس، من أراد أن يُثكل أمه، أو يوتم ولده، أو يُرمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي».

قال علي رضي اللَّه عنه: فما اتّبعه إلا قومٌ من المستضعفين، علّمهم ما أَرشدهم، ثم مضى لوجهه.

ه

سيقول قائل: ما لعمر يعلن هجرته، ويمشي على رؤوس الأشهاد من صناديد قريش، والنبي صلى اللَّه عليه وسلم وصاحبه أبو بكر رضي اللَّه عنه يهاجران مستخفيين؟ أيكون عمر أشجعَ من النبي ومن أبي بكر؟

لا واللَّه، ما هو بأشجعَ منهما، ولقد وقف عمر بين يدي النبي وهو بعدُ لم يسلم، ولم يجيء إلا ليقتله، فلما أمسك بتلابيبه ونتره سقط على الأرض، على قدم النبي، وهو يرتعد من هيبته صلى اللَّه عليه وسلم. وكانت الصحابة ـ وفيهم عمر ـ إذا جدّ الجِد وحَمي الوطيس، ودارت رحى الحرب، استتروا بالنبي صلى اللَّه عليه وسلم واحتَمَوْا به، ولما كانت الرِّدّة ورمت العرب عن قوس واحدة، وخاف الصحابة وخاف عمر، وأرادوا المسالمة والملاينة، قام أبو بكر وحده في وجه العالم وصارعه حتى صرعه. فكان عمر يعرفها له أبداً. . فعلام إذن هاجر عمر جهاراً نهاراً، وهاجرا مستخفِيَيْن؟ إن في الأمر لسرّاً، هو غير الشجاعة والجبن، ذلك أن القائد العام عندما ينتقل من

جبهة من جبهات الحرب إلى جبهة أخرى، لا يقف في الطريق على عدوّ، ولا يلقى حرباً، وإذا رأى نفراً من الأعداء يستتر منهم، وينأى عنهم، لأنه إذا سلك سبيل الشجاعة الساذَجة، وأقبل عليهم يقاتلهم، ضيع الجيش الذي ينتظره ولا يعمل إلا به، وخسر المعركة الكبرى لينتصر على نفر من الأعداء في معركة على الهامش، ثم إن فراره لا يُعَدّ جبناً ولا عجزاً، وإقدامه لا يعدّ شجاعة ولا استبسالاً.

ولقد كان النبـي صلى اللّه عليه وسلم القائِدَ الأْكبر، لا في حرب قريش أو هوازن ـ فما قريش؟ وما هوازن؟ ولكن في حرب الشرك والجهل والظلم، في الحروب التي تمتد أبداً بين الحق والباطـل، فلا يدافع عن الحق قوم إلا كانوا تحت راية محمد، فهل يدع مهمته الكبرى، لينتصر على نفرٍ من قريش؟

ذلك هو سرّ الهجرة!

٦

كان المسلمون في مكة، فكانت الخصومة بينهم وبين الكفار من قريش، خصومةً فردية، شخصٌ يناوىء شخصاً، وجماعةٌ تقاتل جماعة، فلما كانت الهجرة، واستقرّ الإسلام في (يثرب)، وفتحت له صدرها، وقدّمت لنصرته أبناءها وفلذات كبدها، استحالت الخصومة إلى شبه (خلاف دولي) بين القرشيين، المقيمين على الشرك، العاكفين على الأصنام، المدافعين عن الباطل، وبين أهل المدينة (المنوَّرة) بنـور التوحيد، (أنصار) الأسلام، وحماة الدين، وجنود اللّه، واتسع الخلاف، وخاب مع الكفار المنطق، وتعذّر الصلح، ولم يبق بدٌّ من الحرب.

ومهما يقل اليوم (دعاة السـلام) في شناعة الحرب، ويصفوا من أهوالها، وينفروا منها، ومهما يؤلفوا في ذلك من كتب، ويصنفوا من أصناف، فـإنّ مما لا ريب فيه، أن هناك حرباً (مقدسة) مشروعة فاضلة، هي الحرب التي تُشَبّ نارها دفاعاً عن الحق، وذبّاً عن الفضيلة، وتأديباً للمجرمين... ومن ينكر ذلك؟ ومن ينكر على الجنـد أن يحاربـوا اللصوص والمجرمين، ويمنعوهم أن يَعيثوا في الأرض فساداً؟ ومن يمنع القاضيَ أن يقتل القاتل ليشتريَ بموته حياة أمة، ويحبس الجانيَ ليضمن بحبسه حريةَ شعب؟

كذلك كانت (معركة بدر) حرباً مقدّسة، أُثيرت من أجل الحق والفضيلة، والسلام والإسلام... فمشت إلى بدر (عصابة المجرمين) من قريش، مزهوّةً زهوَ اللصوص، شامخة بآنافها شموخَ القَتَلة، مستكبرةً استكبار قُطّاع الطرق... ومشت فرق الجنود المسلمين، متواضعةً للّه، خاضعةً له، لا قوّة لها إلا قوة الحق، ولا سلاحَ إلا سلاح الإيمان، ولا غرض لها إلا تطهير الأرض من أدران الشرك، وأَوضار الظلم، ومحوِ (الأرستقراطية) السخيفة العاتية.

والتقتا في (بدر)، فالتقى الحق بالباطل، والنور بالظلام، ووقف اللصوص والحراس وجهاً لوجه... ووقف التاريخ على مفترق الطرق، يرقب النتيجة: فإما أَن ينتصر المسلمون فيمضي صُعُداً، ويرقى في مدارج العَلاء، متوشحاً بوشاح الحضارة، وإما أن يندحروا فينحدر إلى الهاوية... فلم يَنْجل الغبار حتى خرجت (راية محمد) صلى اللّه عليه وسلم خفّاقة منصورة، وخرج (اللصوص) بين قتيل ملقىً للسباع والطير، قد خسر الدنيا والآخرة، وأسيرٍ في عنقه حبلٌ يساق إلى (المحكمة).

* * *

وانعقدت أَشرف (محكمة) وأعدلها، برئاسة سيّد العالم، وأفضل النبيين، وعضوية شيخي المسلمين، وخليفتي النبـي الأمين: الصديق والفاروق، وكان في كرسي (النيابة العامة)، شاعـر الإسلام، وعَلَم الأنصار، البطل الشهيد، عبداللّه بن رَوَاحة.

وافتتحت الجلسة. . . وثبت الجرم، وكانَ (جرماً مشهوداً)، وطلب (النائب العام) أن يعوَّد المتهمون على حياة جهنم، التي كذبوا بها، وأَقدموا عليها، فيكون جزاؤهم جزاءً نارياً: يُلْقَوْن فـي وادٍ كثير الحطب ثم يضرم عليهم ناراً.

ودخلت المحكمة (للمذاكرة)، فسأل الرئيس الأعضاء آراءهم، فَلان أبو بكر (أَرحم الأمة بالأمة)، ورأى أن تؤخذ منهم الفدية، فتكون قوةً للإسلام، ولا يقتلوا، لأنهم بنو العم والعشيرة والإخوان، وخالفه عمر (أَشد الناس في دين اللّه)، وطلب (إِعدامهم)(١) جميعاً. . . هؤلاء أئمة الكفار وصناديدهم وقادتهم، إنهم يعترضون سبيل الدعوة الجديدة، إنهم قطّاع الطرق، فيجب أَن تسلم الطريق إلى اللّه، يجب أَن تمضيَ الدعوة في سبيلها آمنةً مطمئنة.

وسكت صلى اللّه عليه وسلم، ووازن بين الرأيين، ثم نـطق بالحكم، فكان كما رأى أَبو بكر.

غير أن الحكم قد (استؤنف)، ونزل (الاستئناف) من السماء على ما رأى عمر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرىٰ حَتّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

---

(١) والإعدام في اللغة الفقر، يقال (أعدمه اللّه ــ فهو فقير معدم).

٧

وسمت منزلة عمر رضي اللّه عنه في الإسلام، فلم يكن فوقه إلا الصديق الأعظم عليه رضوان اللّه، وكان عمر بطلَ الدعوة وفتاها وحارسها، ثبت مع النبي صلى اللّه عليه وسلم في أُحُد، ساعةَ اضطراب الجيش، وفداه بنفسه، واختاره صلى اللّه عليه وسلم ليجيب أبا سفيان باسم الإسلام، فأجابه جواب القويّ الظاهر. . حسب أبو سفيان أن محمداً قد قتل، وقتل صاحباه، واستراحت قريش من هذه البدعة، فهي ذاهبة إلى حلقاتها حول الكعبة، التي تحدق بها الأصنام، تتحدث حديثها وترويّها أبناءها، ليعتبروا بها فلا يحاولوا الخروج عما أَلْفَوْا عليه آباءهم، حسب أبو سفيان أن الإسلام غمامة صيف جاءت ثم انقشعت، لم يدرِ أن الإسلام أَثبتُ من الأرض، وأَخلد من الزمان، وأنها تزول السموات والأرض ولا يزول، فما هُبل وما هذه الأْباطيل؟ أَقطعة من الحجر، أو فلذة من المعدن، تصنعها بيدك، وتدوسها برجلك، تسوّيها برب العالمين؟ ما هذا العقل يا أبا سفيان؟

كانت أُحُد فكان عمر عظيماً ظافراً فيها كما كان في بدر وهما لعمري سواء، ما غُلب المسلمون في أُحُد، وما غَلب فيها المشركون، . . ذلك أَنهم ما ساروا خمسمائة كيل ــ من مكة إلى المدينة ــ ليصيح قائدهم: أعلُ هُبَل. . أعلُ هُبَل. . ثم رجع من حيث جاء، ولكن ساروا ليفتحوا المدينة، ويقتلوا محمداً، ويجتثُّوا الإسلام من أصله، فكيف يَدعون المدينة وما بينهم وبينها إلا مسيرة نصف ساعة،

وما فيها حامية تذكر، ولا يدخلونها ولا يحتلونها، ولا يغيرون عليها فينهبوها، وكيف ينظر قائدهم العام محمداً صلى اللّه عليه وسلم وصحبه وهم قواد العدوّ، ويكلمهم ويحادثهم ولا يقتلهم ولا يأسرهم، وهو ظاهر عليهم؟ وكيف يُعَدُّ جيش المسلمين منهزماً وقواده ثابتون، وضباطه مستقرون في أَماكنهم، وقلبه باق، ورايته مرفوعة؟

أَما إِن الحق أن جيش المسلمين قد اضطرب ساعةً بعد أن غادر الرُّماة أماكنهم، وأغار عليه خالد قائد فرسان المشركين، وانهزمت بعض فِرقه مذعورةً حائرة، ولكن القادة وفِرَق القلب بقيت ثابتةً في أماكنها تمنع العدو من الوصول إِلى المدينة، حتى يئس فارتد على أعقابه من حيث جاء، ونجح الجيش الإِسلامي في خطته الدفاعية نجاحاً باهراً، ذلك أن الجيش الإِسلامي كان مدافعاً، وأَكبرُ نصرٍ يناله الجيش المدافع هو أن يردَّ العدوّ وينقذ الوطن، وهذا ما قام به الجيش الإِسلامي على أَتمّه، ولكنه خسر كثيراً من الضحايا.

فمعركة أُحُد إِذن نصر للإِسلام، وعمر من أعلام هذه المعركة وأَبطالها.

٨

واقرأ السيرة كلّها، فهي سيرة عمر رضي اللّه عنه، وإِذا لم يظهر اسمه في كل موطن، ولم يَبْدُ ذكره في كل موقع، فلأن النبي صلى اللّه عليه وسلم شمس تسطع في سمائها، فتكسف النجوم مهما كانت وَضّاءة متلألئة، على أن عمر، لقوة شخصيته، ومَضاء عزيمته، لا يكاد يخفى، فقد كان يمثل الجانب القويّ المغامر الطَّماح من الجبهة

الإسلامية، لا يرضى بالهَوَادة، ولا يحب اللين، ولا تأخذه في دين اللّٰه شفقةٌ ولا ملامة.

كان يأبى أَن تُوَقَّع معاهدة الحُدَيْبية، ويُلِحُّ على النبي صلى اللّٰه عليه وسلم أن يَعْمَد إلى الحرب: أَلسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ فعلامَ نعطى الدنية في ديننا؟

فيقول له رسول اللّٰه: يا ابنَ الخطاب، إني رسول اللّٰه، ولن يضيعني أبداً.

فيشتد عليه الأمر، ويضيق به صبره فيذهب إلى أَبي بكر وقد عجز الصحابة كلهم عن احتمال المحنة إلا أبا بكر رضي اللّٰه عنه، فيقول له: يا ابن الخطاب! إنه رسول اللّٰه، ولن يضيعه اللّٰه أبداً...

حتى إذا مرّت الأيام، ووضحت حكمة النبوّة، وكان الفتح، أدرك عمر سموّ رأي النبيّ صلى اللّٰه عليه وسلم، فما زال يتصدق ويصوم ويصلي ويعتق، مخافة كلامه يومئذ حتى رجا أن يكون خيراً، على أَن عمر لم يعارض النبي صلى اللّٰه عليه وسلم ولم يعصه، ولكنه رأيٌ رآه واجتهاد اجتهده، فكان يأملُ موافقة ربه سبحانه وتعالى، كما سبق له أمثالها، وقد كانت طاعته للنبي معروفة، وكان يؤثر رضاه، ولقد أقسم عمر ـ باراً ـ أَن إسلام العباس يوم أَسلم، كان أَحبَّ إليه من إسلام أَبيه الخطاب ـ لو أَسلم ـ لأن إسلام العباس أحب إلى النبي صلى اللّٰه عليه وسلم، وكان النبي أحبَّ إليه من أهله وولده، ومن نفسه التي بين جنبيه.

٩

أَنجز اللَّه وعده، فظهر الإِسلام وغلب، وعمّ الجزيرة، ودان له العرب كلّهم، واجتمع المسلمون في عرفات، في المؤتمر الأعظم، فأنزل اللَّه آخر آية من القرآن[١]، آخر مادة من الدستور الخالد، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلإِسلاَمَ دِيناً﴾ فاحتفلوا بكمال الدين، وتمام النعمة وقام النبـي صلى اللَّه عليه وسلم خطيباً مودّعاً، وأعلن (حقوق الإِنسان) كاملة: الحرية والعدالة والمساواة.

وعاد صلى اللَّه عليه وسلم إِلى المدينة، فلم يلبث أن مرض.

* * *

جزع الصحابة رضي اللَّه عنهم، وشغلهم مرضه عن أولادهم وأنفسهم، فكانوا لا يهنؤون بمنام، ولا يكادون يُسيغون الطعام، ولا يُقبلون على عمل، ولا يرون وجه الدنيا، قلقاً عليه صلى اللَّه عليه وسلم، وكانوا يودون لو يُفتدى بكل ما في الأرض من شيء ليفتدوه، وكانوا يسألون عنه في كل ساعة ولحظة، ويعلمون علمه، فلما قيل قبض رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم طارت العقول، وخفت الأحلام، وزلزل الناس زلزالاً شديداً، وأَصابتهم حيرة، وعراهم ذهول، فلم يدروا ما يصنعون، وكانت ساعة من يوم الحشر. . . ولا عجب فقد كانوا أمواتاً قبل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فكان الرسول مطلعَ حياتهم، وأوّلَ دنياهم، فلمَ لا تكون وفاته خاتمةَ الحياة، وآخرَ الدنيا، وأَن يكون يوم قبضه كيوم القيامة؟

---

(١) أي من أواخر ما نزل.

وجزع عمر، وهزت الرزية نفسه، وغلبه حبُّه رسولَ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فلم يستطع أن يتصوّر أنه قد مات، ولم يقدر أن يتخيل الحياة بدونه، ولم يُطِقْ أن يسمع أنه قد مات، فوثب مخترطاً سيفه، تنطقه عاطفته وحبه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، يمنع الناس أن يقولوا: مات رسول اللَّه إنه لم يمت، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، وقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم، واللَّه ليرجعنّ رسول اللَّه كما رجع موسى، فليقطعنَّ أيديَ رجال وأَرجلَهم زعموا أَن رسول اللَّه مات!

وكان أبو بكر رضي اللَّه عنه غائباً في منزله في السُنْح، وكان أبو بكر العقلَ الثابت، الذي لا تقلقه الحادثات، ولا تحركه النوائب، وكان عمر يومئذ القلبَ الحسّاس، الذي يَفيض بالعاطفة، ويَنبثق بالشعور، فلما قدم دخل على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقبَّله، ثم خرج عمر يتكلم، فاستنصته فلم ينصت، ومضى يتكلم، لا مخالفةً لأبـي بكر، ولكنّ الحسّ الذي طغى على نفسه، والحبَّ الذي غمرها لم يدع فيها سبيلاً لغيره... حتى إذا تكلم أبو بكر فقال كلمته العظيمة:

أيها الناس! من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد اللَّه فإن اللَّه حيٌّ لا يموت، وتلا قول اللَّه عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أفئن مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ ٱللَّه شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ ٱلشَاكِرِينَ﴾ ولما سمعها عمر أفاق كمن استيقظ من حُلم، فرأى أَنه كان مخطئاً، وتحقق الرزية وأدرك أنه لن يرى بعدُ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فخارت قواه، ولم تحمله رجلاه، فسقط على الأَرض.

١٠

واستُخلف أبو بكر رضي اللَّه عنه، فكان عمر وزيراً له ومشيراً وكان قاضيه على المدينة، وكان يأخذ برأيه في أَكثر الأحيان، ويسمع منه، وهو الذي اقترح عليه جمع القرآن، فتردّد حيناً ثم وافق، ولما أحسّ أبو بكر بدنو أجله سمّاه للخلافة من بعده.

على أَن خلافة عمر لم تكن بعهد من أبـي بكر، على نحو ما كان يعهد الخلفاء إلى أولادهم أو أقربائهم، ولكنها كانت انتخاباً برلمانياً كأنه يمضي على أصح الأَساليب الدستورية اليوم وأقومها، ذلك أَن أَبا بكر كان خليفة منتخباً، انتخبه أَصحاب الحلّ والعقد، وهم (النواب) الطبيعيون في الحكم الإسلامي، كما ينتخب النواب اليوم رئيس الجمهورية ــ والخليفة في الإسلام رئيس جمهورية، ولكنّ رئاسته لا تحدّ بزمن، وإنما تمتد مدة الحياة ــ فلما استبان له من نفسه جمع الناس إليه، وأطلق أيمانهم من بيعته، وسألهم أن يؤمروا من يشاءون في حياة منه، كيلا يختلفوا بعده. ومعنى ذلك أنه قدم استقالته إلى المجلس، فلما قُبلت رجع كما كان، وكانت تلك هي المرحلة الأولى، من مراحل انتخاب عمر رضي اللَّه عنه.

أما المرحلة الثانية ــ فهي أن الصحابة (وهم النواب) ذهبوا بعد استقالة أبـي بكر، فبحثوا في انتخاب خليفة، فلم يستقم لهم أَمر، فرجعوا إليه فقالوا: رأينا يا خليفة رسول اللَّه رأيك، أي إنهم فوّضوه، وأعطوه حق تسمية الخليفة من بعده.

وهنا تبدأ المرحلة الثالثة ــ ويبدو فيها علوّ نظر أبـي بكر رضي

اللَّه عنه، وسعة مداركه، وفهمه لمبدَإ الشورى، في دعوته كبارَ الصحابة والزعماء واستشارتهم، فلما علم أنهم متفقون على عمر، عزم على تسميته، وحمل لواء المعارضة بعض الصحابة واحتجوا بشدة عمر، وسألوا أبا بكر، كما يسأل النواب اليوم أعضاء الحكومة: ما أنت قائل لربك غداً إِذا سألك عن استخلافك عمر علينا؟ فأجاب رضي اللَّه عنه أَبلغ جواب وأسدَّه، فقال: أقول اللهم إِني استخلفت على أهلك خير أهلك.

والمرحلة الرابعة ــ في عرض هذه التسمية على الناس، كما يعرض عَلى المجلس اقتراح نائب، أَو قرار لجنة من اللجان البرلمانية ليوافق عليه أو يردّه... فخرج مندوب أبـي بكر رضي اللَّه عنه بالكتاب على الناس، فسألهم الموافقة عليه، فوافقوا جميعاً، إِلا علي بن أَبـي طالب رضي اللَّه عنه، فأبى أن يوافق إِلا إِن كان عمر، فلما علم أنه عمر وافق.

والمرحلة الخامسة ــ في البيعة العامة التي استمرّت في المدينة ثلاثة أيام، وكانت بمثابة الانتخاب الشعبـي العام.

هذه هي طريقة انتخاب عمر رضي اللَّه عنه للخلافة، فهل تقل عن أقوم أساليب انتخاب الرئيس، في أَرقى جمهورية من جمهوريات العالم؟

١١

لم يكد عمر ينفض يده من تراب أَبـي بكر رضي اللَّه عنهما حتى قام في مكانه، فألقى (خطبة العرش) وعرض فيها سياسته ومنهاجه،

لا يعرضها ملوك اليوم، ورؤساء الزمان، ألفاظاً معسولة، تحمل أحلاماً بعيداً تحقيقها، وأمانيَّ متعسراً بلوغها، يخدعون بها الناس عن رضاهم، وينالون بها إِعجابهم، ثم لا ينفذون شيئاً منها، بل عرض منهاجه ونفّذه، وزاد عليه، وكان فيه نادرةَ الزمان، وأعجوبة الدهر، أعلن أَنه لم يبلغ ذو حق أن يطاع في معصية اللّٰه، فلا يطيعونه إلا في أمر جائز، فهو رئيس جمهورية دستوري، مقيد بالقرآن، وقائم على تنفيذه، وليس بالملك المطلق، الذي يمنح أَوامره صفة التشريع، ولا هو بالحاكم الجبار الذي يتخذ الناس عبيداً له وخَوَلاً، وأعلن حقّه من بيت المال، بأَنه يُنزل نفسه منزلة وليّ اليتيم، إِن استغنى كفّ، وإِن احتاج أَكل بالمعروف، فلا يتخذ الخلافة مغنماً، ولا سلماً للعلو على الناس والاستكبار في الأرض، ولا يملك حق التصرف بخزينة الدولة كتصرف مالك المال بماله، وسار في خلافته كلّها على هذا الأسلوب الشعبي، واستطاع بعقله الكبير، أن يسيّر وحده هذه المملكة الواسعة، على شكل من العدالة لم يرَ التاريخ مثله إلى اليوم.

كان يعلم الناس بحقوقهم، ويبصّرهم بها، ويحثهم على مراقبة الخليفة ووُلاته، حتى بلغ في ذلك حدَّ التصريح بأن على الناس أن يولوا رجلاً منهم فإن استقام اتبعوه، وإِن جَنَف قتلوه، فيعترض عليه طلحة، ويقول له: وما عليك إِذا قلت: وإِن تعوَّج عزلوه؟ قال عمر رضي اللّٰه عنه: لا، القتل أنكل لمن بعده؟

ألقى عليهم هذا الدرس، ثم امتحنهم به، فسألهم وهو على المنبر، ما هم فاعلون إذا رأوا في الخليفة اعوجاجاً، فلما رآهم قد حفظوا الدرس، وعرفوا ما لهم من حق عليه، اطمأن وسُرّ، أفرأيت ملكاً من

الملوك، أو رئيساً من الرؤساء، يقف من شعبه موقف الزعيم الوطني المتطرف، والمعارضِ الخَطِر، الذي يحثُّ الناس على البطش بالحكومة وتقويمها بالسيوف إذا رأوا فيها اعوجاجاً، وآنسوا منها ميلاً؟

١٢

كان المسلمون يتتابعون على بيعة عمر، ويصافحونه بإمرة المؤمنين، وهو رانٍ ببصره إلى الأفق البعيد، يخترقه بفكره، وينفذ منه إلى الفضاء الواسع، فلا يرى إلا دولتين هَرِمتين مريضتين، تقتسمان نصف المعمور، وتهدمان بجبروتهما الزائف، وحكمهما الجائر، كل ما يرجوه الناس من عدالة وحرية ومساواة، وتسومان الناس خُطَّةَ الخسف، وتسوسانهم سياسة العسف، وَيَرِنّ في أذنيه صدى شكوى الشعوب المحكومة، التي خابت آمالها بالأرض، فأصبحت تنتظر الفرج من السماء، ترقب السلام والعدل، يحملهما إليها النبي الجديد، الذي بشر به الكهان ورجال الدين. . . . وقد كاد يَنْفَد منها الصبر. . .

فقال: لبيك لبيك. . . ها نحن جئنا.

نعم يجب أَن نسير إلى فتح فارس، مملكة كسرى، إمبراطورية العجم. . . ولم لا؟ ألم يتحقق بالإسلام الحُلم البعيد، أَلم يكن المستحيل، فيُقبل وجوه قريش، وعيون الأنصار، ورؤووس العرب جميعاً على بيعته، ويستظلوا برايته؟ من كان يظن في الجاهلية أَن يكون من الممكن اجتماعَ هذه القبائل كلها، والدماء تسيل بين الأخوين بكر وتَغْلِب، والحرب تدوم بينهما أربعين سنة، والمعارك بين عبس وذبيان،

والخلاف بين ربيعة ومضر، والنزاع بين كل اثنين يلتقيان في بادية... حتى كأن الجزيرة ميدان قتال! لقد تمت فيهم معجزة الإسلام، فلماذا لا يمشون إلى فتح العالم؟

ورجع بفكره إلى ليلة الخندق، حين ضرب صلى اللّه عليه وسلم تلك الضربة التاريخية التي أَضاءت قصور الشام والعراق، فبشر بفتحها، ووعد بها، لقد تحقق شِقُّ البشارة، لقد فتحت نصف سُورِيَة الرومانية، فلماذا لا تفتح العراق الفارسية؟ أيها المسلمون!.. هلموا إلى فتح فارس!

١٣

ولكنهم لم يَنسَوْا بعدُ عظمة كسرى وجبروته، ولم يذهب بعد من نفوسهم ما كان قد وقر فيها في الجاهلية من تعظيم أَمر فارس، وإكبار شأنهم، وما كانوا يعتقدون من سعة ملكهم، وقوة سلطانهم، ولم يغب عنهم أَنهم كانوا يسمون تابعاً من أتباعه «ملك العرب» ويسترفدونه، ويتوسل إليه شعراؤهم بالمِدَح الفخمة، إنهم لم يَكونوا يجرؤون على النعمان فكيف يهجمون على كسرى في عُقْر داره؟ هذه هي الامبراطورية الرومانية، سيدة العالم، وربة الحروب، تبلغ من فارس في حروبها مبلغاً، ولم تنل منها منالاً، ولم تدنُ من عاصمتها يوماً من الأيام، أفهؤلاء العرب يفتحونها بإبلهم الهزيلة، وسيوفهم الملفوفة بالخِرَق؟ إن لم تقدر القسطنطينية على المدائن، أفتقدر عليها هذه القرية المنزوية بين صخور الحَرّة، وتأكلها أكلاً؟..

لا. إن هذا مستحيل!

* * *

لبث عمر ثلاثاً يستنفر الناس لحرب فارس، فلا يتقدم أحد، لقد كانت جهة فارس أكرهَ الجهـات وأَثقلها عليهم. فلم يكلّ عمر رضي اللَّه عنه ولم يَنِ، وطفق ينادي: أين الطُّرَّاء المهاجرون عن موعود اللَّه؟ سيروا في الأَرض التي وعدكم اللَّه في الكتاب أَن يورثكموها، إِن اللَّه مظهر دينه، ومعزّ ناصره، ومُولي أهله مواريث الأمم، أَين عباد اللَّه الصالحون؟

فلما كان اليوم الرابع، تقدم أبو عبيد بن مسعود، وتقدم جماعة من الناس، فأمره عليهم وسيّرهم.

١٤

ثم التفت إِلى الشام، فعالج شؤونها، ورتب أمورها، وولى أبا عبيدة قيادة جيوشها، ونحّى عنها خالداً. لقد كان خالد نابغة الحروب، وأحدَ القواد الذين أَدهشوا التاريخ، والذين هم فلتة من فَلَتات الزمان، لا يظهر الواحد منهم إلا في القرون الطويلة: الإِسكندر وهنيبعل وخالد وابن القاسم وقتيبة وطارق ونابليون، بل ربما كان خالد أعظمهم جميعاً، بل ليس في ذلك شك لمن درس خالداً وعرفه، وقليل هم الـذين عرفوا خالداً.

فلماذا يعزله عمر؟

هـذا ما خـاضت فيه أَلسنـة تنطق بغيـر المنطق، وتهـرِف بما لا تعـرف، وتحركت فيـه أقلام تتبـع الهـوى، وتخبط في ظلمـات الجهل. . .

لا. لم يعزله عن مَوْجدةٍ ولا خيانة، ولا بغض ولا انتقام، ولقد كان

عمر يحب خالداً ويكرمه، وكان عارفاً بمنزلته، وعالماً بمقدرته، وإنما ضحّى به في سبيل الإسلام، ولقد يبدو هذا القول غريباً ولكنه الصواب: إن الإسلام يقوم على مبدإ التوحيد، على اعتقاد أن اللّه هو النافع الضار، وأن كل شيء بيده، وأَنه لا يعطي غيره، ولا يمنع سواه، فخاف أن يتكل المسلمون على خالد، أو يعتقدوا أَنهم يُنْصَرون به، فيُفتنوا ويضلّوا، وإذا غاب عنهم غُلبوا وذلّوا، فعزله. ولقد صرّح عمر نفسه بهذا في مرسوم بعث به إلى الأمصار حين قال:

«إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا عن خيانة، ولكن فتنوا به، فخشيت أن يوكلوا إليه ويُبتلوا به، فأحببت أن يعلموا أن اللّه هو الصانع، وأن لا يكونوا بعُرْض فتنة».

ومن استعظم عزل خالد، وعدّه كسراً لخاطره، وجحوداً لفضله وعقوقاً، ورآه شرّ جزاء له على أعماله، فإنما رأى ذلك لجهله بأخلاق المسلمين الأولين، وظنّهِ أن خالداً كان يقاتل من أجل الإمارة، فإذا تركته الإمارة ترك القتال؛ أو أَنه يقاتل من أجل الخليفة، رغبةً بوسام يناله، ورتبة يحظى بها، فإذا عزله الخليفة انصرف عن الحرب، أَو ثار وعارض، كما قد فعل القوّاد من غير المسلمين، لم يدر أن خالداً كان يقاتل للّه، ورغبةً بثوابه، فكان سواء لديه أَكان جندياً صغيراً، أو قائداً عاماً، ولم يبلغ هذا الناقد قول خالد حين وصل إليه العزل: واللّه لو ولّى عليّ عمر امرأة لسمعت وأطعت!!

أَللّه أكبر! ما هذه النفوس؟

أما إنه لا عجب إذا لم نفهمها، ولم ندرك كنهها، فلقد كانت تحلّق في سماءٍ لا تبلغها نفوسنا ولا بالخيال، ولا غَرْوَ إن لم نستطع أن نفهم

كيف آثر عمر المصلحة العامة فعزل خالداً وهو يُقسم أنه يحبّه، وهو صادق في قسمه، وكيف رضي خالد بالعزل وقاتل جندياً كما كان يقاتل قائداً، ولا غرابة إن لم يفهم مؤرخو الغرب والمستشرقون سرَّ هذه المسألة، فإنها مسألة رجال هم من طرازٍ لا يعيش في أوروبة!

١٥

أبلى أبو عبيد أحسن البلاء، وكان مثالاً من عمر، أُهدي إليه طعام فأبى أن يقبله إلا إن أُهدي مثله إلى كل رجل في المعسكر، وفتح اللّه على يديه فتوحاً، ولكنّ خاتمته وخاتمة الحملة كانت مأساة أليمة، أصيب هو والمسلمون في وقعة الجسر، وبلغ الخبر عمر، فشقّ عليه، وحزّ في قلبه، وكان الجندي الواحد أحبَّ إليه من خزائن المال، فمكث لحزنه سنة لا يذكر العراق، ثم ذكر وعد النبي صلى اللّه عليه وسلم بالفتح، فجدّد من عزيمته، وأَثار من همته، فعاد يندب الناس إلى حرب فارس، فلما اجتمع إليه الجيش، خرج على رأسه، حتى إذا بلغ صِراراً، استشار الناس أيقيم أم يذهب غازياً، وكان عمر لا يُمضي مسألةً صغيرة كانت أم كبيرة ما لم يعرضها على مجلس الأمة، ويستشير فيها المهاجرين والأنصار، أهل الحلّ والعقد، ثم يعمل بآرائهم، أو يقترح عليهم ويبيّن لهم، ويجادلهم، فكانت الديمقراطية طبعاً فيه ثابتاً، وخُلقاً أَصيلاً، لا متكلَّفاً ولا مصنوعاً.

أجمع ممثلو الأمة على أن يقيم ويبعث مع الجند قائداً، واختاروا له سعد بن أبي وقّاص. ولو كنت مع عمر، إذ يعيّن القواد، ويسلمهم قيادة الجيوش التي تمشي إلى فتح العالم، لعجبت وخشيت، وقلت:

ما لهذا والقيادة، والقيادة فنٌ له حدوده وقواعده، وعلمٌ له أصوله وفروعه، فما يكون قائداً إلا من درس هذه القواعد، وأَلَمَّ بهذه الفروع؟... مَن سعد، وما هو مُغْنٍ حيالَ رستم وغير رستم، من القوّاد العسكريين (الإخصائيين)؟؟

فما هي إلا يَفْصِل هذا القائد بالجيش، ويواجهَ العدوّ، ويخوض المعركة، حتى ترى منه ما يَبُذّ قوّاد العالم ويَبْهَر أصحاب التاريخ، وما هي إلا (القادسية) حتى ترى سعداً هذا، هذا العربي الذي لم يتخرج من مدرسة عسكرية، ولم يترقّ في رتب الجندية، بطل الموقعة التي تعدُّ من أكبر المواقع الفاصلة في التاريخ، والتي قضت على أعظم امبراطورية من امبراطوريات العالم القديم، وقلْ مثل ذلك عن أَبي عبيدة والمُثَنَّى والنعمان.

وما في ذلك عجب، ولا هو بالغريب، لأن هؤلاء قد تخرجوا من أَكبر الجامعات، قد تخرجوا في جامعة الإسلام، وأخذوا الشهادة من محمد سيد العالم صلى اللّه عليه وسلم...

١٦

لم يكن عمر حاكماً مدنياً فقط، بل كان القائد العام لجيوش المسلمين، في كافة الميادين، يسيّر الجيوش ويعيّن لها الطريق، ويمدّها بالمؤن والذخائر، ويتبع بعد ذلك مسيرها وحركاتها، ويكون على صلة تامة ــ كما يحدثنا الطبري ــ بكل حركة يقوم بها القوَّاد، ولا تكون حركة إلا عن رأيه ومشورته، فلا يكاد يصل سعد إلى شِرَافٍ وهي في آخر نجد، حتى يأتيَه كتاب عمر وقد وقف على أمره كله، يأمره فيه بأن يقسم

الجند إلى عشرات، ويعيّن لهم العُرَفاء، ثم يجعلهم فِرَقاً ويقيم لهم القوّاد، فلا يمضي سعد إلا قليلاً حتى يأتيه كتابه يصف له الطريق والمواقع، ولا يدع شيئاً من طبيعة الأرض، وأَخلاق العدوّ ونفسيته إلا بيّنه، وتقدم إليه (أي أمره) بأن يسلك من هنا، ويخرج من هناك، ثم يتحصن بين الحجر والمدر، ثم يلزم (استحكاماته) فلا يخرج منها، حتى يأتيَه العدو بقوّته وجمعه، فيحمل عليه حملة واحدة، فإذا ربح المسلمون هذه المعركة ضمنوا النصر، لأن العدو يكون قد خسر معظم قوته، وإذا بقي لديه قوة فإنها قد أضاعت (معنوياتها)، وكسرت المعركة الأولى نفوسها، وإذا غلب المسلمون استقبلوا صحراءهم، وحفظوا خط رجعتهم، وعرّضوا الأعداء الذين يلحقون بهم إلى الضلال والهلاك.

وكذلك كان موقفه في كل المعارك التي خاضها قوّاده، هو الذي يرسم الخطط، ويحدّد المواقع، ويتصل بجيشه الذي يفصل بينه وبينه أكثر من ألف وخمسمائة كيل في البادية، اتصال قائد أمامه الخريطة الحربية مفصّلة، وفي يمينه القلم الأحمر، وفي يساره الهاتف الكهربي (الالكتروني) يا للّه! أيّة عبقرية هذه التي أدارت ثلاثة ميادين، تمتد من بلاد الأفغان إلى طرابلس الغرب، وهي في المدينة؟

أما إن الفضل في الفتوح لعمر مباشرة، لأنه لم يكن رئيس شرف، كما هي الحال في أكثر ملوك اليوم ورؤساء الجمهوريات، ولكنه كان الرئيس الحقيقي للجيوش الإسلامية، والقائد العام، والمحرك الأول، وهذا هو الطبري يحدثنا أَن عمر لم يَكن يدع أمراً من أمر الجيش إلا أسنده إلى رجل هو مسؤول عنه أمام الخليفة نفسه، حتى مأموري الإعاشة، حتى

مقسمي الغنائم، حتى الأئمة والوعاظ.

* * *

وكان عمر (مع ذلك) يرئِس[1] (الهيئة التشريعية)، يضع القوانين، يستمدّها من الإسلام، ويقرّر النُّظُم، ويقوم بعمل (وزير الداخلية) فيعين الولاة والموظفين الإداريين، ويأمرهم وينهاهم، ويسألهم ويراقبهم، ويقوم بعمل (وزير العدلية) فينصب القضاة، ويعلمهم أصول القضاء، ويعظهم ويرشدهم، ويقوم بعمل (وزير الأشغال العامة) فيفتح الطرق، ويحفر الخُلُج، والأنهار، وكان (بعد ذلك) يصلي بالناس ويحج بهم، ويخطبهم، ويفتي إذا استُفْتي، ويقضي بين الخصوم، وكان يقـوم بوظيفـة (المحتسب) فيُشرف على الأسواق، ويحدّد الأسعار. وكان (فوق ذلك) يمشي بنفسه إلى النساء اللواتي غاب أزواجهنَّ في الحروب، فيقرع عليهنَّ الأبواب، يسألهنّ ألكنّ حاجة؟ ويأخذ جواريهنّ معه فيشتري لهنّ ما يطلبن، فإن لم يكن للمرأة ما تشتري به اشترى لها من عنده، وإذا قدم البريد، دار بالكتب عليهنّ فقرأ لهنّ من وراء الأبواب إن كنّ لا يعرفن القراءة، وكان (على ذلك) يحرس القوافل خشية السَّرق، ويداوي إبل الصدقة، ويخدم العجائز ويحمل على ظهره الدقيق ويطبخ للأطفال الجياع، ويعمل في الشمس اللاذعة، وفي الريح الباردة، وكان (برغم ذلك) لا يأخذ من بيت المال إلا ثمن غَداء وعَشاء، وقميصٍ للصيف وقميص للشتاء، وكان (بعد هذا كلّه...) يبكي خشية أَن يكون قد قصّر في أَداء ما يجب عليه للرعية، أَو أخـذ من مالها أكثر مما يستحق!!

ذلك هو عمر العظيم، الـذي يحق لنا أن نفـاخر بـه الإنس والجنّ...

---

(١) رأس يرئِس: كما حققها العالم اللغوي الشيخ عبدالقادر المغربي نائب رئيس المجمع العلمي في دمشق.

١٧

أرسل عمر الجيش مع سعد، وأقام ينتظر خبره على أحرَّ من الجمر، وأحدَّ من السيف، فأبطأ عليه خبر الفتح فجزع عمر القويّ واضطرب، وأضحى كالأب المُدَلَّه يستخبر عن ولده، والأم تسأل عن وحيدها، فكان يخرج كلّ صباح إلى أَطراف الحَرّة، ثُم يـوغل في الصحراء، يرقب الأفق، علّه يرى رسولاً فيعلم منه علم القوم، وينتظر إلى أن تلتهب الأَرض، ويتسعر النهار، فيعود إلى المدينة، ينظر الصباح الآتي ليخرج فيأخذ خبراً، أَو يرى مخبراً، لم يكن يُطيق البقآء وجيوش المسلمين تغامر أعظم مغامرةٍ حربية، تهاجم امبراطورية الفرس، لتفتح بلادها، وما ذلك بالشيء القليل، ولا هو بالأمر السهل. إنها تحارب أقوى قوة عسكرية وأعزّ حكومة وأشدّها، فهل أظفرها اللّه بها، أم نالها منها سوء؟ هذا ما كان يفكر فيه عمر، ولا يقرّ له قرارٌ حتى يعلمه.

وبينما كان عمر على شاطىء الصحراء، ينتظر كما ينتظر كل يوم، إذا هو يرى راكباً يطلع عليه من الأفق البعيد، من جهة العراق، أَهو البشير الذي يحمل نبأ الفتح، أم هو الناعي الذي يجيء بخبر الهزيمة؟ لم يتمالك عمر أَن يقف مكانه، فسعى إليه، حتى إذا بلغه سأله عن الخبر، فقال: هزم اللّه العدوّ، فأشرق وجه عمر رضي اللّه عنه، وخالط السرور حبّة قلبه، فجعل يسير إلى جانبه يسأله وهو يَخُبّ، والرجل راكب، يجيبه جواباً مقتضباً لا يَحْفِل به، ولا يأبَهُ له، وما لـه ولهذا السائل؟ إنما جآء ليبشر أمير المؤمنين.

فلما دخلا المدينة، ورأى الـرجل النـاس يسلمون على عمـر

ويهنئونه، انخلع قلبه من الخوف، ونزل يعتذر إلى أَميـر المؤمنين، فلا يطاوعه لسانه على الكلام، يرتقب أن يأمر به عمر، فيضرب أَو يعاقب على ما أَتعبه وأَعرض عنه، وإِذا بعمر العظيم، يطمئنه ويؤنسه، ويقول له: لا عليك يا أخي!

١٨

هؤلآء العرب الذين كانوا يأكلون القِدّ، ويشتوون الجلد، والذين كانوا على أَشد حال من الفقر والضيق وسوء الحال، ماذا تراهم فاعلين وقد وقعوا على أثمن كنز في الأرض، وقد أباحهم اللَّه خزائنَ كسرى شاهنشاه وجواهره وأمواله؟

ماذا كان يفعل أي جيش كان في مكانهم، ماذا يصنع اليوم أَرقى جيش في أرقى دولة؟ أتجد في الألف منهم واحداً يقع في يده جوهر يساوي المئات من الألوف، وهو فقيرٌ مفلس، لا يراه ــ إِذا أخذه ــ أحد، ولا يدري به، فتدفعه أمانته إِلى تسليمه للموظف الرسمي؟ لقد شوهد هذا مراراً في جيش المسلمين، من ذلك الجيش لما هبط المدائن وجمع الجند الغنائم، وغدوا على صاحب الأَقباض (مأمور الغنائم) يسلمون ما بأيديهم، جاء رجل معهُ حقّ يسلمه. لما رأى صاحب الأَقباض ومن معه ما فيه دهشوا، وقالوا له: ما رأينا مثل هذا قط، ما يعدله عندنا شيء ولا يقاربه، فهل أخذت منه شيئاً؟ قال: أما واللَّه لولا اللَّه ما أَتيتكم به! وقد كان صادقاً، فمن غير اللَّه يراه وسط الهمرجة ويعلم ما أخذ؟ فقالوا: إِن لك لشأناً، فمن أنت؟ قال: لا واللَّه لا أخبركم لتحمدوني، ولكني أحمد اللَّه وأرضى بثوابه.

وليس هذا فعلَ رجل واحد أو رجلين، ولكن الجيش كله كان على هذا الغِرار، وهذه ثلاث شهادات رسمية بأمانة الجيش وعفّته، أَولها شهادة قائد فرقة كبيرة هو جابر بن عبدالله: واللَّه الذي لا إله إلا هو ما اطلعنا على أَحد من أهل القادسية أَنه يريد الدنيا مع الآخرة، ولقد اتهمنا ثلاثة نفر، فما رأينا كالذي هجمنا عليه من زهدهم وأمانتهم: طُلَحة بن خُويَلد، وعمرو بن معد يكرب، وقيس بن المكشوح.

وشهادة القائد العام للجيش سعد بن أبـي وَقّاص، قال: واللَّه إن الجيش لذو أمانة، ولولا ما سبق لأهل بدرٍ لقلت وايم اللَّه، على فضل أهل بدر، لقد تتبعت من أقوامٍ هَنات وهَنات فيما أحرزوا ما أَحسبها ولا أسمعها من هؤلآء القوم.

والثالثة شهادة أمير المؤمنين والقائد الأكبر لجيوش المسلمين، حين قدموا عليه بسيف كسرى ومنطقته وزِبْرِجه، فقال إن أقواماً أَدّوا هذا لذوو أمانة.

فقال له عليّ: إنك عففت فعفت الرعية(١).

١٩

أَولم تسمع بالزعماء المخلصين، كيف تغيـروا وتبدلـوا، حين جلسوا على مقاعد الحكم، واستكبروا في الأرض بغير الحق، وعتوا عتوّاً كبيراً، فسكنوا القصور، وأخذوا الأموال، واستسلموا إلى الملذات؟ أولم يبلغك نبؤهم؟ لقد ملّ التاريخ من تكـراره، لقـد أَلفنا من الرجل

(١) الطبري ٦: ١٧٧.

أن تغيّره وظيفة صغيرة، أو مرتبةٌ دنيّة، فكيف لا نمتلىء عجباً من عمر، وإكباراً له، حين بلغ أسمى منزلة يبلغها في عصره بشر، فلم تبدله ولم تغيّره، ولم ينل منها منفعة ولا لذة، بل بقي على حاله قبل الولاية، في زِيّه ولباسه، وأَفعاله وتواضعه، يسير منفرداً في السفر والحضر، من غير حرسٍ ولا حجاب، لم يغيره الأَمر، ولم تبطره النعمة.

وانظر إلى عمر في الموقف الذي يطغى فيه أعدل الحكام وأشدهم ديموقراطية ويزهو ويتعاظم، انظر إليه حين جآءه خبر فتح فارس، وظفره بكسرى، وامتلاكه بلاده، حين أصبح هو امبراطور فارس، وملك الشام والجزيرة، إنه بدلًا من أَن يشمخ بأنفه، ويُصّعِر خده، ويمشيَ في موكب الظفر مشي قواد روما، صعد المنبر، فأعلن سياسته الشعبية، وأكد صلته بالرعية، وبين أَنه خادمٌ للشعب، يسد حاجته ما قدر عليها، فإِذا عجز واسى الشعب حتى يستويا في الكفاف، وأعلن أَن الحاكم ليس مالكاً لرقاب الناس، وليس الشعب عبداً له، ولكنه عبدٌ للَّه، وأَمينٌ للشعب، فإِن وفى الأَمانة فقد فاز، وإِن خانها خسر خسراناً مبيناً.

ذلك هو موقف عمر، حين ربح المعركة الكبرى!

٢٠

ودارت رحى الحروب في كل مكان، فكانت تطحن الجند طحناً، فيهتف القواد بعمر، فيصرخ في هذه البادية ويجلدها بسوطه، فتخرج له كلّ مرة جيشاً جديداً، يجتمع في المدينة ليمشي إِلى أَرجآء الأرض، فكانت هذه المدينة الصغيرة أَجلّ مركزٍ حربي، لا ترى فيها إِلا حركةً دائمةً، فِرَقاً تسير أَمداداً إِلى الشام والعراق. وجنداً يحلون ساحتها

لينتظموا فرقاً، وعمر العظيم عاملٌ في الليل والنهار، يدير هذا الدولاب الهائل، فلا يقف أبداً.

ولما رأى عمر أن الفتوح قد اتسعت، وأن المدينة لم تعد تصلح أن تكون القاعدة العسكرية لبعدها عن الميدان الشرقي (ميدان فارس) أسس عمر قاعدتين حربيتين، إحداهما على حدود فارس والشام والعراق، والأخرى على حدود الشام والعراق والجزيرة، وبالقرب من تخوم الروم، وحرص على جعل هذه القواعد مدناً ثابتة ليثبت بها الفتح، وتصبغ البلاد بالصبغة الإسلامية العربية، ولم يشأْ إسكان المسلمين في المدن القديمة لئلا تؤثر فيهم العاداتُ الأجنبية، وتفسدَهم حياة الترف، وهذا من بعد نظر عمر، وعظمة تفكيره، فخدمت هاتان القاعدتان الحربيتان المسلمين في فتوحهم أجلّ خدمة، وكانت مبعث الأَمْداد المتوالية إلى الميدان الشرقي وإلى ميدان الشام، ولما انتهت الحروب قامتا بخدمة الثقافة والآداب، فلم ينشأ شاعر أو كاتب أَو عالم إلا للكوفة أَو للبصرة فضل عنه.

٢١

هوت على أقدام عمر أعظم امبراطوريات العالم القديم، وأضحى ملك كسرى الشاسع ولايةً من ولاياته، وجازت جيوشه المظفرة إلى ما وراء بلاد العجم، وسقطت بين يديه مصر والشام، ولم يبق أمام عمر من حكومات العالم إلا الامبراطورية البيزنطية، وهي كليمةٌ مريضةٌ ترتجف من خوف عمر، وممالك الشرق الأَقْصى متوارية في زاوية الكون لا يدري بها أَحد.

بلغ عمر من العظمة ما لم يبلغه عربـي، وحاز ما لم يحزه في سالف الدهر (دارا) ولا الإسكندر، هو الحاكم المطلق في ثلث المعمور يومئذ من الأرض، أرأيتم خِرّيج الأرقم في أصل الصَّفَا، دخلها غليظاً جافياً يريد أَن يقتل رسول اللّه وسيد العالم صلى اللّه عليه وسلم، وخرج منها غالب كسرى وقيصر؟

كان يأمر فيمشي أَمره إلى بلاد الأفغان من هنا، وإلى طرابلس الغرب من هناك، وإلى اليمن وحضرموت، وإلى جبال طوروس، لا يفكر والٍ في الخروج عليه، أَو عصيان أمره، ولا يَهُمّ شعبٌ بثورة أو انتفاض، ولا تجد في الناس إلا راضياً عن عمر، مسروراً في عهد عمر، مطمئناً لعدل عمر، وكان عمر الحاكم والقائد والقاضيَ والسياسيَّ والعالم والخطيب والإمام والواعظ، وكان كلَّ شيء، وكان دولةً كاملة!

إن عبقرية البادية إذا هي ظهرت وواتتها الظروف تكون أعظم العبقريات وأَجلَّها، وكذلك كانت عبقرية عمر.

عُـدَّ عمرَ مـع القوّاد الكبـار، الذين أداروا الميـادين، وسيّروا الجيوش، وفتحوا البلدان، وحازوا الأمجاد، وكانوا أَبداً مظفرين غالبين موفقين، تَرَه من أعظم القواد وأَجلهم، ولو لم يكن له إلا هذه منقبةً لأحلّته أسمى منازل العظمة.. فكيف وهذه إحدى مناقبه، وناحيةٌ من نواحي عبقريته؟

عُدّ عمر مع المصلحين القانونيين، مع ليكورغ وجوستنيان تراه من أعظم (المشرعين)[1]، وأجل القانونيين، نافذ النظر، قويّ التفكير، ماضي

---

(١) والصحيح أن نقول (الشارعين).

العزم، فقيهاً عالماً منظماً، ولو لم يكن إلا هذه منقبة لأحلته أسمى منازل العظمة... فكيف وهذه إحدى مناقبه، وناحية من نواحي عبقريّته؟

عُدّ عمر مع الزعماء الشعبيين، أنصار الديمقراطية، ودعاة العدالة والحرية والمساواة، والمدافعين عن حقوق الشعب، تره من أعظم الشعبيين، والزعماء المخلصين، الذين يسعون لإسعاد المجموع، وترفيه الشعب، ومقاومة الارستقراطية، ومحاربة الاستبداد... ولو لم يكن إلا هذه منقبة لأحلته أَسمى منازل العظمة... فكيف وهذه إِحدى مناقبه وناحية من نواحي عبقريته؟

عُدّ عمر مع الأُدباء البارزين، الذين أُثرت عنهم أَشرف الأقوال، وأبلغ الخطب والرسائل، وأَصح النظرات النقدية، وأجمل الحكم والأَمثال، تراه من أَعظم الأُدباء، وتجد له من الآثار الأَدبية ما لو كان لرجل عادي لأَضحى به نابغاً عظيماً، وأديباً خالداً، فكيف بعمر وهذه إِحدى مناقبه، وناحية من نواحي عبقريته!

عُدّ عمر مع الزهاد الأتقياء، الذين ترفعت نفوسهم عن الدنيا، وزهدت في مُتَعها ولذاذاتها، ولم تُقِم لها وزناً، والذين هم مثلٌ أعلى في استقامة السيرة، وصفاء السريرة، وملازمة الفضيلة، واتباع سبيل الحق، تره إِمامَهم وسيدَهم، ومن لو لم يكن له إلا هذه منقبة لأَحلّته أسمى منازل العظمة... فكيف بمن هذه إِحدى مناقبه، وناحيةٌ من نواحي عبقريته؟

عُدّ عمر مع الإنسانيين الذين يعطفون على البشرية، ويرفعون من شأنها... عدّ عمر مع النابغين الذين سبقوا أوانهم، وعاشوا في الأجيال الآتية... عُدّ عمر مع كل فرقة من العظماء، مع كل طائفة من العبقريين؛

فأي عبقرية هذه العبقرية؟ وأي نفس هذه النفوس؟

* * *

لم يبق أمام عمر درجةٌ من العظمة يرتقي إليها، فإلى أين يسمو؟ إلى الجنة!

فليزهد عمر في الدنيا، ولتصغر في عينه، وليرَ كلَّ ما فيها حقيراً لأنه هو أَعظم منها، وماذا فيها؟ المال؟ لقد كثر على عمر، حتى كاله كيلاً؛ وحتى ملّ من النظر إليه، إنه لا يريده، ولا يَمَسُّه، ولا يَحْفِل به.

الجواهر واللآلىء؟ لقد كُوّمت أمامه جواهر كسرى، فلم يأخذ منها شيئاً، إنها لا تستخفُّه، ولا تستهويه، ولا يلقي إليها بالاً.

الجاه والمجد؟ إن عنده منهما ما يكفي أمة بأسرها.

الثياب والقصور؟ لقد كان بيته الصغير، وثوبه المرقّع أَجلَّ منها جميعاً، وهذا هو الهرمزان، بتاجه المرصّع بالياقوت والزبرجد، وثيابه الموشّاة بخيوط الذهب، وشارته وزينته، يقف على عمر وعمر ملتحف بالبرنس، فيكسف برنس عمر زينة الهرمزان، فإذا ذهبه أسود باهت، وياقوته مظلم منطفىء، وإذا هو حيال عمر، كالشمعة حيال الشمس.

ذلك أن من العظمة ما يُلْبَس ويخُلع كالثوب المستعار، تلك هي عظمة الثياب والقصور، والأوسمة والشارات، تلك هي عظمة الهرمزان، انزع ثياب الهرمزان لا يبقَ منه شيء، اخلع عن القائد أوسمته وشاراته يرجع جنديّاً، أما عمر، فهو هو العظمة، عظمته في نفسه، في مواهبه، في وجوده، فهو دائماً عظيم، لأنه دائماً موجود، ولئن كانت العظمة في

مزايا الرجل ومواهبه، فعمر عظيم، وإن كانت في جلال آثاره، وكبر أَعماله، فعمر عظيم، وإن كانت فيما نفع به الناس، ورفّه به من حياة البشر، فعمر عظيم... هذه هي البلاد التي فتحها عمر، وهذه هي المدن التي بناها عمر، وهذه هي القوانين التي سنّها عمر، وهذه هي الحكم التي قالها عمر... إنها خالدة أبداً تقول: إن عمر عظيم...

هذا هو اسم عمر، يذكر كل يوم، وفي كل كتاب، وعلى كل لسان، وبكل لغة! ليس في تاريخ البشر أعظم منه إلا أبو بكر، حاشا الرسل والأنبياء.

٢٢

قفز عمر بعقله الكبير إلى القرون التي لم تخلق بعد، فعاش فيها، وفكر بعقلها، وسبق زمانه بأَشياء كثيرة، ندرسها اليوم معجبين مكبرين، من ذلك فهم عمر للحكم الشعبي، وتصريحه بأجلّ المبادىء التي لم يصل إليها البشر إلا بعد ثورات دامية، وجهادٍ طويل، وصوغُ هذه التصريحات في (مرسومات ملكية) وتعميمها على الأمصار، لتطبيقها والعمل بها، فهو أول حاكم ينشر مرسوماً يبين فيه للشعب أن الوُلاة ليسوا سادةَ الناس، وليس لهم حق في أموالهم ولا أبشارهم، وأن الحرّيات مضمونة، والأموالَ محروسة، وما الولاة إلا معلمين وأَئمةً وخداماً للشعب، يقومون بمصالحه العامة، ويسعون لسعادته، وفَتَحَ بابه لكل شكوى ترفع على أيْ أميرٍ من الأمراء، أو والٍ من الولاة، وما قام خلاف بين والٍ ورعية إلا كان عمر في صف الرعية، فيحقق في المسألة، فإذا ظهر له أَن الشاكيَ محقٌّ عزل الوالي أو عاقبه أو أعطى الشاكي حق الاقتصاص منه، وإن ظهر له أنه مبطل، وأن الرعية ظالمة، وقف في

ذلك موقف القاضي العادل.

وكان له موظف خاص للتفتيش على الولاة، والتحقيق معهم، هو محمد بن مسلمة، فكان يبعث به دائماً يجول في الأقطار، ويحقق في شكاوي الناس، ويسألهم رغباتهم وطلباتهم، ويرفع ذلك إلى عمر، وكان أَكبر ما يخشاه عمر من الولاة أن يتخذوا الولاية سبيلاً إلى الغنى والإثراء من أموال الرعية، فكان يراقب أحوالهم المالية مراقبةً دقيقة، فَمَن جمع المال أو أصاب غنى ناصفه ماله، وكان يخشى أَن يحمل الولاة أقاربهم على رقاب الناس، وأن يفضلوهم عليهم، ويكوّنوا منهم طبقةً أرستقراطية، تظلم الناس وتترفع عليهم، ويعاقب من يفعل ذلك أَشدّ العقوبة، ولقد دعا بعمرو بن العاص، البطل العظيم فاتح مصر، حين ضرب ابنه المصري، ومكّنه منه حتى انتصف منه وقال كلمته الخالدة، الكلمة التي لم تقم الثورة الفرنسية بعد ألف سنة إلا لإعادتها مرة ثانية، (ثم لم نستطع إعادتها): متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟

ولم يكن لكلمة عمر فضل السبق فقط، ولكنّ لها فضلاً أكبر، هو أن قائلها ليس زعيماً من زعماء الشعب، يطمع بكرسي الوزارة، أو يحلم بعرش الملك، فهو يصعد إليه على عواتق أبناء الشعب المسكين، بل إن قائلها الحاكم الأكبر في الدولة، والقائد الأعلى في الجيش، فهل سمعت بملك في أمةٍ، يقرّر القاعدة التي لا تثور الشعوب اليوم، ولا يقوم الزعماء، إلا أملاً بتقريرها؟

ومن سبق عمر لأوانه، أنه لم يكن في الدنيا يومئذ حكومة تُعْنى بالغابات، أو تهتم بها، أو تعرف قيمتها، فنظر عمر بعقله الكبير، إلى العصور الآتية التي تفخر (فيما تفخر به) بحفظ الغابات وحمايتها، فأقام

حارساً على الحمى الذي حماه، ومنع قطع أشجاره، وجعل عقوبة من يخالف ويتجرأ على قطع أشجار الحمى، أن يصادَر فأسه وحبله، ويُمنع من هذا العمل.

ومن ذلك أنه منع التسوّل في الطرقات، وجعل للعاجزين راتباً يعيشون منه، وهو أَمر لم تعرفه الحكومات إلا من عهد قريب.

وأقام بين مكة والمدينة فنادق مجانية، لإعانة المنقطع، وإطعام الجائع.

وأَنشأ نظام الحسبة، ونظر في الموازين والمكاييل ومنع الغش، ورفع الضرر من الطريق، وعُني بنظافة المدن، وقام بكل الأَعمال التي يقوم بها اليوم (المجلس البلدي)... ولم يكن يومئذ حكومة تعرف هذا النظام.

ومن ذلك أَن عمر لما أمر بإنشاء الكوفة والبصرة، نظر بنور اللَّه إلى المستقبل، وقدر ما سيكون لها من الشأن فأمر بتخطيطها على أسلوب مدن قرن العشرين. عرض الشوارع أَربعون ذرعاً إلى الثلاثين، والبنيان طبقتان أَو ثلاث كيلا يسدّ الهواء، فكأَنه رضي اللَّه عنه دكتور في هندسة البنيان.

وكان يسعى أبداً إلى عمارة الأَرض وإحيائها، ويمنح حق الملكية لمن يحيي أرضاً مواتاً، ويقدم المصلحة العامة على مصلحة الفرد، ويبدو في ذلك اشتراكيّاً مُصلحاً، إنه لينتزع من بلال بن الحارث المزني أرضاً كبيرة كان أقطعه إياها رسول اللَّه صَلى اللَّه عليه وسلم لأنه لا يقدر على إحيائها، ويريد تركها بُوراً، معتمداً في ذلك على أسس الديانة الإسلامية وقواعدها.

ولقد بدا عقل عمر، لما فتحت البلاد وأرادوا تقسيمها بين الجنود على أنها غنائم، حين ذهب بعقله إلى الأمام، إلى الأجيال الآتية، ماذا يبقى لها إذا قسمت أَرض الشام والعراق ومصر؟ كيف بمن يأتي فيجد الأرض بعلوجها قد اقتسمت ووُرثت عن الآباء وحِيزت؟ ما هذا برأي. ولكنهم أبوا عليه وعارضوه، فلم ينفرد عمر برأيه، يستعمل سلطانه، بل عقد على عادته مجلساً شورياً، وعرض فيه المسألة، فاتفقوا على معارضته وقالوا: أَتقف ما أفاء اللّٰه علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا، ولأبناء القوم وأَبناء أَبنائهم، ثم طلبوا إليه أَن يَعرِض الأمر على (البرلمان)، فدعا عمر بأعضاء البرلمان الإسلامي، بالمهاجرين والأنصار، فاختلفوا فأحصى الأكثرية، فإذا هي معه، فأمضى الأمر، فكان بقاء هذه الأراضي أملاكاً للدولة ومنبعاً من أغزر منابع الخزينة العامة، لأن جباية سواد الكوفة وحدها، بلغت قبل وفاة عمر مليون درهم.

٢٣

لقد مضت عشر سنين، عشر سنين وعمر دائبٌ يعمل بعقله ولسانه ويده، لا ينام من الليل إلا غِراراً، لأنه مشغول بأمور المسلمين، ولا يُسيغ طعاماً، ولا ينتقي ثياباً، ولا يبتغي لذة، لأنه يخشى أَن يضيع أَموال المسلمين، عشر سنين، أَتمّ فيها العمل الكبير الذي بدأَ من (غار حِرَاء)، لقد أَصبح التسعة والثلاثون رجلاً، المختفون في دار الأرقم، سادةَ الحجاز ونجدٍ والجزيرة كلها، والشام ومصر والعراق والعجم، لقد صارت دار الأرقم دولةً عظيمةً منظمةً، فاقت دولة روما، ومملكة فارس.

لقد أنجز عمر المهمة الكبرى، وحق له أن يستريح أَياماً بعد هذا العناء الطويل، أن ينعم بالحياة، أن يذوق طعم اللذة.

ولقد بدأ يستريح، ولكنها الراحة الأَبديّة، لقد وقع الزلزال، لقد قُتل عمر!

قَتل عمر عبدٌ فارسي لئيم، بمؤامرة فارسية دنيئة... لم يبق لعمر في الحياة إلا أمل واحد، هو أَن يكون في البيت مع صاحبيه، اللذين أحبّهما ولازمهما، وكانا ثالثَهما، فأرسل ابنه يستأذن له السيدة عائشة أم المؤمنين، وأوصاه أن يقول لها: إن عمر يسلم عليك ويستأذن أَن يُدفن مع صاحبيه.

ــ لا تقل لها، إن أَمير المؤمنين، لست اليوم للمؤمنين أميراً.

إنه يخشى أَن يستعمل منزلته في حاجة له، أو يستغلها لمنفعته، حتى في هذه الساعة.

ذهب عبداللَّه يستأذن، ولبث عمر ينتظر على مثل اللَّهَب، إنه يُشفق أن تردّه، فيضيع أمله الوحيد، فلما قيل قد أقبل قال: ارفعوني!

هذا الذي كان يمسك بأذن الفرَس بيده، ويأخذ أُذنه باليد الأخرى ثم يقفز عليه فيستوي على ظهره، فكأَنما قد خلق عليه، هذا الذي كان يخرج في الهاجرة في وَهَج الشمس، ولفح السَّموم يسوق بَكْرين من إبل الصدقة، هذا القويّ البطل العظيم، الذي كان يلتفت إلى أصحابه يسألهم حاجة، فيصعقون من هيبته.

إنه لا يستطيع الآن أن ينهض، إلا أَن يُنهضوه... فسبحان من لا يتغير!

نهض فقال: ما وراءك؟ قال: أَذنت.

قال عمر: الحمد للَّه: فما كان شيء أَحبَّ إِليّ من هذا المضجع. وهوى إِلى الفراش.

* * *

وهناك... في هذه الغرفة الصغيرة، التي طالما قام فيها سيد العالمين صلى اللَّه عليه وسلم يتلقى الوحي، ويبعث البعوث، ويعلّم الناس، ويعبد اللَّه، وطالما شهدت اجتماع الصحابة، وطالما هبط إِليها جبريل، وطالما كتبت فيها أروع صفحات التاريخ.

هناك... حفرت حفرةٌ صغيرة، وقام عليها رجالٌ ينتظرون أن يأتيَ عمر.

جاء عمر، ولكنه لم يطأ الأرض بشدةٍ كما وطئها يوم خرج ليقتل سيد العالم صلى اللَّه عليه وسلم، ولم تتقلقل تحت أقدامه، وإِنما دخلها محمولاً فوُضع في الحفرة وأُغلقت إِلى الأَبد!

وهناك... أمام هذه الحجرة الشريفة، يقف دائماً وأَبداً وفود المسلمين، من كافة أرجاء الأَرض، خاشعين متأدبين، يقولون:

السلام عليك يا رسول اللَّه،

السلام عليك يا أبا بكر،

السلام عليك يا عمر!

لا ينقطعون، ولا يسكتون، إِلى يوم القيامة.

دمشق

منتصف المحرم ١٣٥٦هـ

• • •